قصة قصيرة

الـــرســـ

منذ أكثر من عشرين عاماً وحمدان المطر يعمل ساعياً للبريد في مدينة (م).ولم يكن ذات يوم قد أهمل عمله أو تضجّر منه . كان يعمل في توزيع الرسائل حتىٰ بعد انتهاء الدوام الرسمي ، وفي بعض الأحيان حتى ساعة متأخرة من الليل ، ونتيجة خبرة تمتد إلى عشرين عاماً ماضية إكتسبها من عمله المقرّب إلى نفسه كموزع للرسائل تعرّف على الكثيرين من سكان المدينة وموظفي الدوائر وطلاّب المدارس إلى الدرجة التي فيها ما ان يرى موظفاً حتى يخطر بباله في أي دائرة يعمل أو طالباً حتى يتذكر مدرسته وموقعها أو حتى مجرد رجل عابر حتى يتذكر مواصفات بيته وربما شكل زوجته وتسلسل أعمار أبنائه .

أصبح حمدان المطر نتيجة هذه الخبرة الطيّبة موسوعة معارف ضخمة ، ومتشعبة في جزئيات حياة الآخرين وخصوصياتهم المختلفة وملامح بيوتهم والطرق التي تؤدي إلى دوائرهم أو مدارسهم . ولم يجد ذات يوم صعوبة في ايصال أي رسالة أو برقية أو طرد إلى صاحبها المقصود . ما ان يستلم مجموعة الرسائل وكومة الطرود من موظفة البريد حتى يتفحّصها باهتمام ودراية بعد أن يثبت نظارته الطبّية على عينيه الجاحظتين ويمضي في قراءة العناوين المختلفة الخطوط والاشارات ويتوقف طويلا عند كلمة (نشكر موزع البريد) التي يقرأها بتركيز ولأكثر من مرة في بعض الأحيان . وحين تستعصي عليه كلمة أو يُمحى حرف أو تضيع جملة من العنوان المثبّت على الغلاف نتيجة السهو من المرسل أو لكثرة التداول بين الأيدي ، يدرك الجزء المفقود من سياق العنوان ، ولم يخطىء ذات يوم في استنتاجاته أو توقعاته للكلمة الغامضة أو الحرف الممحوّ أو الجملة الضائعة من العنوان . بل وصلته ذات يوم رسالة لم يُكتب على غلافها سوى اسم محافظة (م) واسم الشخص المرسلة إليه فاستطاع في غضون أيام قلائل العثور على الشخص المقصود وسلّمه رسالته .

كان يخامره احساس بأن واجبه كموزع للرسائل في غاية الأهمّية ، بل تترتب على عاتقه مسؤوليات كبيرة ليس من الأمانة والخلق الرفيع التهاون فيها ، فهذه الرسائل تحمل في طيّاتها الكثير من الأمور المهمّة والصعبة ، وأحياناً تكون هذه الأمور مصيريّة ، وعلى هذا لا يمكن تأجيلها أو التهاون في سرعة ايصالها قدر الامكان . امّا اهمالها فجريمة نكراء لا تغتفر .

يجد حمدان المطر متعة لا تضاهيها متعة حين ينظر إلى جعبته النسيجيّة وقد فرغت من الرسائل . لقد أدّى الأمانة إلى أصحابها واستحق بذلك أن يجلس هادئاً ، مرتاح البال في مقهى المحلّة أو في الجامع أو في البيت أو يشارك في مناطق نائية ومتفرقة من المدينة في تشييع بعض الجنازات أو حضور حفلات الأفراح المختلفة كالزواج والختان والدبكات .

يفكر حمدان المطر بأن صلاة الجماعة مباركة فإن لم تكن في الجامع فمن المستحسن أن تكون مع بقيّة المصلّين في أحد بيوت العزاء ، وعلى ضوء هذا التصور كان يبحث عن صلاة الجماعة أينما تكون ، وبرغم كل هذا وفي شتى الأوضاع التي يمرُّ بها لا يخلو تفكيره من أهمية الرسائل وضرورتها في حياة الناس والمجتمعات . ناس في أقصى أطراف الأرض يبعثون برسائلهم إلى ناس آخرين لشتّى الأمور الحياتية فتصل عبر مراحل عديدة ومختلفة إلى أن تقع بين يديه ، حينها تصبح مسؤوليّته كبيرة وفي غاية الأهميّة تلحّ عليه بضرورة ايصالها إلى صاحبها بأي شكل من الأشكال .

منذ عشرين عاماً لم يجد صعوبة في ايصال أي رسالة إلى صاحبها كما يحدث له الآن . فهذه الرسالة المدعوكة والمكتوب عنوانها بقلم الرصاص وبخط في غاية السوء غير واضح ، بل مُحي بعضه نتيجة تداول الأيدي وكثرة التقليب ، مما يؤكد قِدَم هذه الرسالة وطول عمرها قبل أن تصل إليه . ولكنه برغم هذا استطاع أن يترجم بعض الخطوط المتداخلة والمرتبكة إلى جملة مؤداها (الوالد العزيز إبراهيم الخلف المحترم) وكذلك قرأ باعتزاز جملة (نشكر موزع البريد) واسم المحافظة ، ونتيجة تقصّي شخصي دؤ وب استطاع أن يصل إلى الشارع المقصود وبالتالي إلى المحلة المقصودة ، ولكن الرجل المقصود كان قد إرتحل إلى مكان آخر تضاربت الأقوال في تحديد مكانه ، ومع هذا استطاع في الأسبوع الأخير من بحثه الدؤ وب أن يلتقط اشارات وأوصافاً لا تخلو من أهمية تشير إلى بعض أماكن تواجد إبراهيم الخلف والمحلّة الجديدة التي يقطنها .

وبرغم اصراره على البحث والاستفسار من كل من يصادفه في الطريق فإنه لم يجد جواباً شافياً ومؤكداً يحسم هذا القلق ويؤدي إلى النتيجة المرتقبة التي تعزز مسيرة عشرين عاماً من العمل كموزع للرسائل .

وعند هذه النقطة التي أصبحت صعبة التجاوز أصبح الأمر لحمدان المطر

ـــالـــة

بقلم: حمد صالح

ليس أمر رسالة يجب ايصالها إلى صاحبها ، إنما أمر طعن في ذاكرته التي صقلت والتي يفترض انها أصبحت تفهم في أمور الرسائل أكثر مما يفهم الآخرون وإلّا فما هو اختلاف ساعي البريد عن أي شخص عاديّ آخر ؟ أين ذهبت تجربة عشرين عاماً من توزيع الرسائل ؟ أمن المعقول أن يستعصي عليه العثور في مدينة (م) التيّ يعرفها شبراً شبراً ومحلّة محلّة وشارعاً شارعاً على رجل اسمه إبراهيم الخلف ؟

نفض حمدان المطر رأسه بانزعاج كما لو أن أحداً نخزه بمسمار مدبّب في خاصرته . تصفّح الرسالة للمرة الألف خلال هذا الشهر وعلى سيمائه ترتسم ملامح الاهتمام والحيرة ، ثم اعتلى دراجته الهوائية ومضى يطوف شوارع المدينة بحثاً عن صاحب الرسالة .

كانت الشمس طوقاً من الضوء الملتهب معلقاً فوق عمارات المدينة ، والجو ساخناً ملتهباً بحرارة غير اعتيادية ومع هذا كانت الشوارع مزدحمة بالسيارات وممرات الأرصفة ومداخل الأزقّة الضيّقة مكتظّة بالبشر المختلفي الأعمار والسحنات ، فيما كانت دراجته الهوائية تطوف المدينة من أقصاها إلى أقصاها بسرعة هي الأخرى غير اعتيادية ، وكانت جعبته النسيجيّة لا تضم بداخلها سوى رسالة واحدة مكتوبة بقلم الرصاص معنونة إلى (الوالد العزيز إبراهيم الخلف المحترم) . ساءل نفسه بيأس في أي الأماكن يتواجد هذا الإنسان المجهول يا تُرى ؟ وما هو شكله ؟ وهل في الرسالة أشياء مهمّة وضرورية تستوجب كل هذا التعب ؟ منذ شهر تقريباً والرسالة نائمة في الجعبة ، وهذا ما لم يحدث لرسالة أخرى في حياة حمدان المطر الوظيفية ، ولا يسمح هو بالمقابل بحدوثها مطلقاً . فإذا أصرّت هذه الرسالة على عدم مغادرة الجعبة فالشيء الثابت في ذلك هو عدم كفاءته كموزع للرسائل !

يجب أن يجد صاحب الرسالة بالرغم من كل شيء آخر ، وان لم يجده فطلب الاحالة على التقاعد أولى من البقاء في عمل لا يستطيع أن ينجزه على وجهه الأكمل . سأل الكثيرين وبدقة وتركيز قبل أن يصل إلى المحلّة التي يفترض أن إبراهيم الخلف يسكنها الآن . تأمل البيوت والأبواب والشرفات والنوافذ القديمة الطراز بعين خبيرة مدققة . تفحّص كذلك مداخل الأزقّة الآسنة . مسح وجهه المتفصّد عرقاً بطرف يشماغه وترجل بهدوء لا يخلو من تعب عن درّاجته الهوائية وركنها على جذع شجرة يوكالبتس ضخمة تقع على طرف الشارع . وحين انحرف في زاوية الشارع الخالي من السابلة شاهد بيتاً منسوجاً من شعر الماعز مثبتاً بحبال غليظة من القنّب مقاماً في فسحة من الأرض غير مأهولة مرتكزاً على أعمدة خشبيّة متباعدة وبداخله حلقات واسعة من الرجال يتأهّبون لأداء صلاة العصر . عرف من طابعه الظاهري انه مأتم فآثر أن يصلي مع بقية المصلين صلاة الجماعة ، وكذلك يقرأ الفاتحة ويتناول فنجاناً من القهوة ومن ثم يواصل تساؤله عن شخص ما اسمه إبراهيم الخلف . توضأ واحتل له مكاناً بين صفوف المصلين ، وحين انتهت الصلاة جلس في طرف البيت الواسع بانتظار القهوة التي كانت دائرة ومستمعاً إلى أحاديث المجالس المأتمية المألوفة . وكان إلى جانبه رجل في حدود الأربعين ، يعتمر عقالا من المرعز ويشماغاً منقطاً بالأسود والأبيض وبدلة سوداء قاتمة ونظيفة ولكنها تفتقر إلى الكيّ . صامت . يميل إلى العبوس والتجهم . يُسقط باستمرار رتيب خرزات مسبحته الحجريّة .

سأله حمدان المطر :

- لمن هذا العزاء ؟

التفت الرجل بوقار وتزمّت :

- شهيد ، جاؤوا به من الجبهة

دمدم حمدان المطر من بين أسنانه :

- الله يرحمه . . لكن إبن من هذا الشهيد ؟

- ابن رجل سكن محلّتنا حديثاً اسمه إبراهيم الخلف .

رنّت الكلمة بصخب وضجيج في رأس حمدان المطر. تلاصقت الحروف بهدوء قاتل ومضت تتساقط متآلفة من تساقط خرزات المسبحة الحجرية . كل حرف يسقط يثير زوبعة من الغبار المتوالد في الذهن المعتم . كل حرف رصاصة ,تخترق جسداً . ضاعت الوجوه وتلاشت الأصوات المنداحة في بيت العزاء . خرزات المسبحة تتساقط بعمق في رأسه كمطارق ثقيلة تدق على وتد من الفولاذ . ظل منفرداً يتيه في جلبة عواصف الغبار المتوالد من تساقط جثث الحروف المشوهة . ينأى مثقلاً بأتعاب زمن كريه ومروّع . هو الآخر أصبح حرفاً مغبراً وضاع بين طيات رسالة مدعوكة مكتوبة بقلم الرصاص . تحامل على يديه تأهباً للنهوض وهو يهمس لنفسه بمرارة : « لم تعد هناك فائدة أن تصل الرسالة الآن ، أو لا تصل إلى الأبد » .

الموصل (العراق)